تأصيل استشراف المستقبل من خلال السنة النبوية

بحث مقدم

لمؤتمر جامعة القصيم بعنوان الفتوى واستشراف المستقبل

إعداد:

الدكتور: محمد سيد أحمد شحاته

أستاذ الحديث الشريف وعلومه المساعد

بجامعة المجمعة

كلية التربية بالزلفي

الْمُقَدِّمَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ للَّه نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيه وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ باللَّه منْ شُرُورِ أَنْفُسنَا، وَمنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالنَا مَنْ يَهْدِه اللَّه فَلا مُضلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (سورة النساء:١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠، ٧١)[١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ خَيْرَ الْحَديث كتَابُ اللَّه وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، مَنْ يَهْدِه اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ[٢].

]مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ﴾ [٣] اللهم فقهنا في الدين وعلمنا التأويل

---

(١) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة أخرجها بهذا اللفظ: الدارمي في - ك النكاح - ب في خطبة النكاح ج٢/ص١٩١ ح(٢٢٠٢)، وأحمد في المسند ج١/ص٣٩٢ - ٣٩٣، ٤٣٢، ج٤/ص٨، ٨-٩، ١٤٨ بالأرقام ٣٧٢٠، ٣٧٢١، ٤١١٥، ٤١١٦، والحاكم في مستدركه - ك النكاح ج٢/ص١٩٩ ح(٢٧٤٤)، وسكت عنه الذهبي، كلهم عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه؛ **وللشيخ الألباني رسالة بعنوان: "خطبة الحاجة التى كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه.**

(٢) أخرجه: مسلم في ك الجمعة ب تخفيف الصلاة والخطبة ج٢/ص٥٩٢ ح(٨٦٧).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري بإسناده إلى معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه **في ك العلم ب**

يا رب العالمين. سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا، وإنا نسألك أن تعلمنا من علمك، ونستودعك ما تعلمنا فذكرنا به وقت الحاجة يا رب العالمين .

أمـا بعد: فالتفكير في المستقبل والاهتمام به أمر فطري مغروس في النفس البشرية، موجـود في أصـل خلقتهـا، وجد مع خلـق آدم، فاهتمـام آدم بالمستقبل جعلـه يأكل من الشجرة، ويعصي ربه، لأنه يعلم أن العبرة في سعادته هو ما تؤول إليه حياته في المستقبل.

وهـذا الاهتمام بالمستقبل تختلـف درجاته على حسب الشخصـن نفسه وعلى حسب تفكـيره ومعتقده، فهـو يقل عند البعض ويـزداد عند البعض الآخـر، يتغلب على تفكير شخص بينما يغيب عن شخص آخر.

ومـن المعلوم أـن النظر في الماضـي يساعد على إصـلاح المستقبـل، فمعرفة الخطأ تساعد على إصلاحه، ومعرفة سر النجاح تساعد على تنميته.

فاستشـراف المستقبل يبدأ مـن دراسة الماضي بكل ما فيه مـن أحداث وسنن، لتمر بالحاضـر المعاش، ولا تتم هذه العملية بالشكل الصحيـح إلا إذا نظر في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ .

والأمة الإسلاميـة الآن بحاجة إلى هذه النظرة، في كل مجالات الحياة، وبخاصة في مجـال الفقه، فالفقيه لا يجيب على القضايا الفقهية الموجودة في كتب الفقهاء وحسب، بل يجيب عن القضايا المستحدثة أو ما يسمى بالنوازل، والقرآن والسنة أخصب مصدر لاستلهام الأفكار .

ولا يخفـى على المسلمـين عموماً وعلى الباحثـين في العلوم الإسلاميـة خصوصاً أن الشريعة الإسلامية أثبتت المصالح للناس في الحاضر والمستقبل.

فـلا بـد من الاستعـداد لكل نائبـة متوقعة من نوائـب الدهر عن طريـق استشراف

مـن يـرد الله بـه خـيراً يفقهه في الديـن ١/ ٣٩ ح(٧١)، وفى ك فرض الخمس ب قولـه تعالى (فَأَنَّ لِلَّه خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُـول) الأنفـال: ٣/ ١١٣٤ ح(٢٩٤٨)، وفـى ك الاعتصـام ب قول النبـي ﷺ : "لا تزَالَ طائفة منَ أمتي ظَاهرين على الحق الحديث" ٦/ ٢٦٦٧ ح(٦٨٨٢)؛ ومسـلم في ك الزكاة ب النهى عن المسألة ٢/ ٧١٨ ح(١٠٣٧) وفى ك الإمارة ب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ٣/ ١٥٢٤ح(١٠٣٧).

المستقبل، والتخطيط المسبق، لأن المستقبل لا يدرك بالحواس.

وهذا ما كان يذكر به رسول الله ﷺ أصحابه، ويدعوهم إليه.

والاستشراف في الحديث النبوي لا يخضع للتجربة البشرية لأنه يحتمل إلا الصواب، لأنه خرج من لسان من قال عنه ربه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣-٤].

ودراسة منهجه ﷺ في استشراف المستقبل تعتبر الخطوة الأساسية الأولى، وليست الوحيدة، في سبيل استشراف مستقبل زاهر للأمة الإسلامية.

حيث إن هذه الأحاديث هي التي يستمد منها المفتي طريقته في الإفتاء، بل ويعتمد في إفتاءه على نصوص السنة النبوية، فالسنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع.

ومن هنا جاء البحث بهذا العنوان: (استشراف المستقبل في فتاوى رسول الله ﷺ - دراسة في ضوء السنة النبوية).

هذا وقد قسمت هذا البحث على النحو الآتي:

المقدمة : أهمية الموضوع – سبب اختياره – عناصره.

التمهيد: معنى استشراف المستقبل وأهميته.

معنى الاستشراف لغة، واصطلاحاً .

معنى الاستقبال لغة، واصطلاحاً .

معنى استشراف المستقبل اصطلاحاً.

أهمية استشراف المستقبل في السنة النبوية.

ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية.

الفصل الأول: طريقة النبي ﷺ في الفتوى، وأثر ذلك في صناعة المفتي.

المبحث الأول: أسلوبه ﷺ في الإفتاء.

المبحث الثاني: كيف كان الصحابة يأخذون منه الفتوى؟.

الفصل الثاني: مواقف لرسول ﷺ تجاه المستقبل .

المبحث الأول : استحضاره لليوم الآخر .

المبحث الثاني : النظر الدائم للمستقبل.
المبحث الثالث : تشريعه لصالح الأجيال القادمة من المسلمين.
الفصل الثالث: الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل.
المبحث الأول: الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور العبادات.
المبحث الثاني: الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور العادات.
المبحث الثالث: الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور الفتن.
الخاتمة: أهم نتائج البحث.

ثم ذيلت البحث بثبت المراجع، ومحتوياته.

التمهيد

عرضت السنة النبوية عرضاً واضحاً بيناً لموضوع مستقبل الإنسان وما تؤول إليه حياته، وفصلت طرق الاهتمام به، وكيفية التعامل معه.

وإذ آن أو حان أوان الوقوف على تفصيلات هذا الموضوع وإيضاح السنة النبوية له، فإنه يجدر بي أن أفصل القول في ألفاظ تدور على ألسنة المتناولين لهذا الموضوع بكثرة قبل أن نعرج على فصول البحث وهذه بعض الكلمات التي ينبغي التعرف عليها وفهم دلالتها (استشراف– المستقبل).

تعريف استشراف المستقبل لغة واصطلاحاً:

من الواضح أن قولك (استشراف المستقبل) مركب إضافي من كلمتي (استشراف) مضاف و(المستقبل) مضاف إليه.

والمركب الإضافي تتوقف معرفته على معرفة لفظيه، أو يتضح معناه ببيان معنى جزأيه.

فلابد عند تعريفه من تعريف المضاف على حده، ثم يُعرّف المضاف إليه، ثم يعرف العلم بإضافة أحد اللفظين إلى الآخر، وعليه أقول:

الاستشراف لغة:

الاسْتِشْرافُ: أَن تَضَع يدك على حاجبك وتنظر، وأَصله من الشرَف والعُلُوّ كأَنه ينظر إليه من موضع مُرْتَفِع فيكون أَكثر لإدراكه ....

والمُشْرَفُ المكان الذي تُشْرِفُ عليه وتعلوه، ومَشارِفُ الأَرض أَعاليها، ولذلك قيل: مَشارِفُ الشَّام.

والشَّرَفُ: ما أشرفَ من الأرض... وأَشْرَفَ الشيءَ وعلى الشيء عَلاه ... وشَرَفُ البعير سَنامه .... وذا الشرَف بفتح الراء والشين أَي: ذا العَلاء والرِّفْعة ....والإِشْرافُ: سُرعةُ

عَدْوِ الخيل([1]).

إذاً فأصل هذه المادة يدور حول النظر للأمور من مكان عال، ومن على بعد حتى تظهر، أو من الشرف والرفعة والعلو.

فالاستشراف: يحمل في مضمونه معاني النظر إلى الشيء البعيد، ومحاولة التعرف عليه، واتخاذ السبل التي توصل إلى ذلك بدقة كالصعود إلى مكان مرتفع يتيح فرصة أكبر للاستطلاع.

أما اصطلاحاً: فعبارة عن اجتهاد علمي منظم، يرمى إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة التي تشمل المعالم الأساسية لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتمعات، عبر مدة زمنية معينة... وذلك عن طريق التركيز على المتغيرات التي يمكن تغييرها بواسطة إصدار القرارات...وبالتالي، فالاستشراف يتعلق بقضايا مجتمعية جوهرية ويوظف متغيرات قابلة لأن تتأثر بسياسة التغيير([2]).

المستقبل:

قَبْلُ نقيض بَعْد ...والقُبُل والقُبُل من كل شيء : نقيض الدُّبُر والدُّبُر وجمعه أَقْبال .

والقابلة : الليلة المُقْبِلة، وقد قَبَل وأَقْبَل بمعنى . يقال : عامٌ قابِل أَي مُقْبِل . وقَبَل الشيءُ وأَقْبَل : ضد دَبَر وأَدْبَرَ قَبْلاً وقُبُلاً . ..وقَبَلَتِ المكانَ : استقبلتْه .

وعام قابِل خلاف دابِر وعام قابِل : مُقبل وكذلك ليلة قابِلة ولا فعل لهما . وما له في هذا الأمر قِبْلة ولا دِبْرة أَي وِجْهة .

والقُبُل إِقبالك على الإِنسان كأَنك لا تريد غيره .

وأَقْبل عليه بوجهه والاستقبال : ضدُّ الاستدبار . واستقبَل الشيءَ وقابَله : حاذاه

---

(١)) لسان العرب - (٩ / ١٦٩)، تاج العروس من جواهر القاموس - (٢٣ / ٤٩٢) مادة شرف باختصار، وانظر: النهاية في غريب الأثر ١١٤٢/٢)، وتهذيب اللغة (٩٧/٤).

(٢)) انظر: «صور المستقبل العربي» ٢٣، د/ إبراهيم سعد الدين، وآخرون، و«الدراسات المستقبلية: الإشكاليات والآفاق»؛ مقال /لعواطف عبدالرحمن، (مجلة عالم الفكر ص١٤، العدد (٤)، ١٩٨٨م)، بتصرُّف يسير.

بوجهه . وأَفْعَلُ ذلك من ذي قِبَل أَي فيما أَسْتَقْبِل .

ويقال : فلان قُبالَتي أَي مستقبَلي، القَبَل بالفتح أَن ترى الهلال أَول ما يُرى ولم يُرَ قَبْل ذلك وكذلك كل شيء أول ما يرى فهو قَبَل ..... والقابل المستقبل.

وعام قابِل أَي مُقْبِل . والقابلة : الليلة المُقْبِلة وكذلك العام القابل .....ويقال : اقْتَبَل أَمرَه إذا استأنَفه . (١).

إذاً فالمستقبل يطلق على الشيء الذي يأتي بعد، أي على الأمور المستقبلية التي لم تأت، وإنما ينتظر إتيانها.

المستقبل اصطلاحاً: هو ما يترقب وجوده بعد زمانك الذي أنت فيه يسمى به لأن الزمان يستقبله(٢).

أما هذا المركب الإضافي فهو: عبارة عن محاولة لاستكشاف المستقبل وفق الأهداف المخططة، باستخدام أساليب كمية تعتمد على قراءة أرقام الحاضر والماضي، أو أساليب كيفية تستنتج أدلتها من الآراء الشخصية القارئة لمجرى الأحداث، ومن المهم لهذا الاستكشاف أن يعتمد على ذلك النوع من المتغيرات القابلة لأن تبنى عليها السياسات التحسينية(٣).

أو :»اجتهاد علمي مُنظَّم، يرمي إلى صوغ مجموعة من التوقُّعات المشروطة (المحددة سابقاً)، التي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتَمَعات، في فترة زمنية مقبلة، تمتد قليلاً لأبعد من عشرين عامًا»(٤).

أما استشراف المستقبل في السنة فأقول : إن معناه ذكر أمور وأحداث غيبية تكون في المستقبل وتكون معرفتها عن طريق الوحي، وهي كائنة لا محالة، ليستفيد منها المسلمون

---

(١)) لسان العرب - (١١ / ٥٣٤) ، وانظر مختار الصحاح - (١ / ٥٦٠).

(٢)) التعريفات - (١ / ٢٧٢).

(٣)) ينظر شبكة المعلومات العالمية موقع : 10.php-http://www.minb r .com/list-l-22

(٤)) انظر: «صور المستقبل العربي» ٢٣، د/ إبراهيم سعد الدين، وآخرون، بتصرُّف لفظي يسير، علمًا بأنَّ الدراسات التأصيلية الشرعية ينبغي أن ينصَّ فيها على الضوابط والفروق الخاصة بالاستشراف الشرعي؛ تمييزًا له عن غيره.

فيتجنبوا الوقوع في الزلل وينجوا من الفتن.

واستشراف المستقبل في الفتوى فأقول: عبارة عن اجتهاد فقهي في المسائل المستحدثة التي تنزل بالمسلمين، ولم تكن في زمن التشريع، يستعمل فيها الفقيه القياس.

أهمية استشراف المستقبل في السنة النبوية:

من الممكن أن نلخص أهمية استشراف المستقبل في السنة النبوية فيما يلي:

(١) أن السنة هي التطبيق العملي للقيم الإسلامية، والتشريعات.

فمن آكد الأدلة على أهمية استشراف المستقبل بصوره المختلفة في السنة النبوية أنه يعد من التطبيقات العملية لعدد من القيم الإسلامية التي ندب إليها النبي ﷺ .

(٢) إصلاح الحاضر ، واكتشاف الهدف عن طريق معرفة الهدي النبوي.

فرسولنا الكريم قص علينا أخبار بني إسرائيل الذين عصوا فحاق بهم سواء العذاب، فنبه بذلك على تقويم الماضي والاعتبار بما جرى فيه، ورعاية الحاضر وحسن إدارته، بالإضافة إلى استشراف المستقبل وقراءة مجالاته المختلفة.

فالذي يستشرف المستقبل إنما يبتغي من وراء ذلك استكشاف الهدف.

(٣) التعرف على المخاطر المحتملة.

الناس عادة أعداء ما جهلوا.. ولكن النجاح الحقيقي هو التصالح مع المستقبل، وما دام المستقبل مجهولاً يظل أحد المتغيرات التي يمكن توجيهها لصالح الدين والدنيا. فهو أحد عناصر التخطيط السليم.

وقد قدمت السنة النبوية المطهرة نماذج متعددة وصوراً مختلفة لاستشراف المستقبل الديني والدنيوي، الفردي والجماعي، في العهدين المكي والمدني، واستشراف النبي ﷺ مستقبل الناس يعد من متطلبات هذا الدين الإسلامي الذي لا دين بعده، ومن لوازم رسالته التي جاءت للناس جميعاً.

ويرمي إلى التعرف على المخاطر المحتملة والمشكلات المنتظرة ؛ ليسهل تجنبها،

ويسعى إلى إيجاد عدد من الخيارات وجملة من البدائل التي تعين على اتخاذ القرار الصحيح في الزمن الصحيح.

ومن هذه الحيثية يدخل الاستشراف في الإحسان المأمور به في حديث شَدّادِ بن أَوْسٍ رضي الله عنه: " إِنّ اللّه كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ "(١).

ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية:

وضعت السنة النبوية ضوابط متعددة لاستشراف المستقبل حتى لا يتعارض مع ثوابت الدين، ولا يتناقض مع مقاصد التشريع الإسلامي، وهي تميز المنهج الإسلامي عن المناهج الأخرى ، وتهدف إلى جلب المصالح ودرء المفاسد.

ومن هذه الضوابط:

(١) الاعتقاد الجازم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وأن العلم والقدرة له وحده، وليس للإنسان من ذلك إلا ما كتب الله له، وما الاستشراف إلا اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب؛ ولذلك فإن السنة النبوية قد حثت المستشرف على أن يستخير الله، ويطلب منه أن يوفقه لخير الأمرين عند الاحتياج إلى أحدهما.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: " إن العبد لا يكون قادراً إلا مع الفعل لا قبله، والله هو خالق العلم بالشيء للعبد وهمه به واقتداره عليه، فإنه يجب على العبد رد الأمور كلها إلى الله، والتبري من الحول والقوة ، وأن يسأل ربه في أموره كلها "(٢).

(٢) عدم استشراف المستقبل بمحرم من المحرمات، ولا بما يتعارض مع العقيدة الإسلامية، فقد نهت السنة النبوية عن الكهانة والعرافة والتنجيم، ومن أجل ذلك فإن

---

(١)) أخرجه: مسلم – ك الصيد والذبائح – ب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ٣ / ١٥٤٨ ح(١٩٥٥).
وينظر فيما سبق: أهمية استشراف المستقبل وضوابطه. دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية للدكتور محمد بشير.

(٢)) فتح الباري – ابن حجر – (١١ / ١٨٧).

الواجب على المستشرف أن ينطلق من تصور للحاضر بجوانبه المختلفة، أو استقراء معطيات الماضي والحاضر معاً ليخلص إلى تحديد اتجاهات المستقبل، وكل ذلك وفق أسس علمية، وجهود منظمة، ترتكز على خبرات عملية، ورغبة في التطوير والإصلاح، ومهارات عقلية متميزة، ويجب عليه أن يكل أمره إلى الله تعالى في كل خطوة من خطواته(١).

(٣) أَنَّ الْإِخْبَارَ عَنْ الاسْتقْبَال لَا يَقْتَضِي إلْزَامَ شَيْء فقَدْ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمين فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا منْهَا فَلْيَأْت الَّذي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينه"(٢) فَأَمَرَهُ بتَرْك مَا حَلَفَ عَلَيْه أَنْ يَفْعَلَهُ(٣).

(٤) أَنَّ الْوَاجبَ في الزَّمَان الْمُسْتَقْبَل غَيْرُ الْوَاجب (الَّذي) كَانَ في الْمَاضي(٤).

(٥) مَا أَخْبَرَ عَنْ وقُوعه في الْمُسْتَقْبَل كَخُرُوج الدَّجَّال ، ..وَنُزُول عيسَى ابْن مَرْيَمَ إلَى الْأَرْض وَنَحْو ذَلكَ ، فَإنَّ النَّسْخَ فيه لَا يَجُوز(٥).

(٦) أَن الْفعْل الْمُسْتَقْبل الْمَأْمُور به إذا كَانَ مُعَلّقا على شَرط لزم أَن يكون الشَّرْط مترقبا في الاسْتقْبَال غير مَاض(٦).

بهذه الضوابط لا يتعارض المسلم مع ثوابت دينه، ولا يتناقض مع مقاصد شريعته.

---

(١)) أهمية استشراف المستقبل وضوابطه - دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية للدكتور محمد بشير.
(٢)) أخرجه: مسلم في كتاب النذر بَابُ نَدْب مَنْ حَلَفَ يَمينًا فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا منْهَا، أَنْ يَأْتيَ الَّذي هُوَ خَيْرٌ، وَيُكَفِّرُ عَنْ يَمينه (٣/ ١٢٧١) ت(١١) من حديث أبي هريرة.
(٣)) الفصول في الأصول (٢/ ١١٤).
(٤)) الفصول في الأصول (٢/ ٢١٦).
(٥)) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٢٥٦).
(٦)) التلخيص في أصول الفقه (١/ ٣١٤).

الفصل الأول

طريقة النبي ﷺ في الفتوى

وأثر ذلك في صناعة المفتي

المبحث الأول

أسلوبه ﷺ في الإفتاء

لقد كانت لرسول الله ﷺ طريقة في الفتوى تعتمد علي اليسر والسهولة يظهر ذلك من خلال عرضه لبعض الأحكام الفقهية ، أو جوابه عنها ، طريقة ينبغي أن يتخذها المفتون نبراساً يقتدون ويهتدون به.

ثم إن طريقته ﷺ في الفتوى وأساليبه التي استخدمها في الفتوى كمراعاة حال السائلين، وكاستخدام لغة السائل، إلى غير ذلك من الوسائل، لها أكبر الأثر في تكوين الفقيه علمياً وعملياً وذلك التأثير يكون في كل عصر ومصر من خلال تعرض الفقهية للأحاديث النبوية.

وهاك بعض الأمور التي توضح طريقته في الفتوى:

(١) مخاطبة الناس على قدر عقولهم:

كان النبي ﷺ يخاطب الناس على قدر عقولهم، فإن الكلام الذي لا يبلغ عقول السامعين ولا يفهمونه قد يكون فتنة لهم، فيأتي بغير المقصود، ولقد كان الرسول المعلم يخاطب حضوره بما يدركونه، فيفهم البدوي الجافي بما يناسب جفاءه وقسوته، ويفهم الحضري ما يلاءم حياته وبيئته، كما أنه يراعى تفاوت المدارك.

وقد ساق البخاري في كتاب العلم باباً قال : «بَاب مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ».

ثم ساق بإسناده إلى الْأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ: كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ كَثِيرًا

فَمَا حَدَّثَتْكَ فِي الْكَعْبَةِ قُلْتُ: قَالَتْ لِي: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ، فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ(١).

قال ابن بطال: «فيه أنه قد يترك يسير من الأمر بالمعروف إذا خشي منه أن يكون سبباً لفتنة قوم ينكرونه»(٢).

وفيه أن النفوس تحب أن تساس كلها لما تأنس إليه في دين الله من غير الفرائض.

قال النووي: «فيه أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة، وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدأ بالأهم، لأن النبي ﷺ أخبر أن رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام مصلحة، ولكن يعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً لما كانوا يرون تغييرها عظيماً فتركها النبي ﷺ "(٣).

وفيه فكر ولي الأمر في مصالح رعيته، واجتناب ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية كأخذ الزكاة وإقامة الحد.

وفيه تأليف قلوبهم وحسن حياطتهم وأن لا ينفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي(٤).

واعتبر كثير من العلماء هذا الحديث وغيره من أعمدة الموازنة بين المصالح، وأنه لابد من تقييم قدرة فهم السمع للعلم والدليل خوفاً من الوقوع بما هو أشد لقصور فهمه عنه.

وساق البخاري أيضاً في كتاب العلم باباً آخر عنوانه : "بَاب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا".

---

(١)) صحيح البخاري ٣٧/١ ح(١٢٦)، وأخرجه: مسلم في ك الحج ب نقض الكعبة وبنائها (٩٦٨/٢) ح(١٣٣٣).

(٢)) شرح صحيح البخارى. لابن بطال - (١ / ٢٠٥).

(٣)) شرح النووي على مسلم - (٩ / ٩٢).

(٤)) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٣ / ٤١٦).

ثم أخرج بسنده إلى أَنَس بْن مَالك أَنَّ النَّبيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَديفُهُ عَلَى الرَّحْل قَالَ: يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَل. قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: يَا مُعَاذُ. قَالَ :لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا. قَالَ: مَا منْ أَحَد يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه صدْقًا منْ قَلْبه إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّار. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلَا أُخْبرُ بِه النَّاسَ فَيَسْتَبْشرُوا. قَالَ: إِذًا يَتَّكلُوا، وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْته تَأَثُّمًا (١).

فيه أنه يجب أن يخص بالعلم قوم فيهم الضبط وصحة الفهم ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لا يستأهله من الطلبة ومن يخاف عليه الترخص والاتكال لتقصير فهمه...

وفيه تكرار الكلام لنكتة وقصد معنى (٢).

فقوله: فأخبر بها معاذ عند موته تأثما معنى التأثم التحرج من الوقوع في الإثم .. وإنما خشي معاذ من الإثم المرتب على كتمان العلم، وكأنه فهم من منع النبي ﷺ أن يخبر بها إخباراً عاماً، لقوله: أفلا أبشر الناس فأخذ هو أولاً بعموم المنع[فلم يخبر بها أحداً، ثم ظهر له أن المنع إنما هو من الأخبار عموماً فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس فجمع بين الحكمين، ويقوى ذلك أن المنع لو كان على عمومه في الأشخاص لما أخبر هو بذلك، وأخذ منه أن من كان في مثل مقامه في الفهم أنه لم يمنع من إخباره(٣).

ومما يدل على أن النبي ﷺ كان يراعي حال السامع ومقدار فهمه ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ منْ بَنى فَزَارَةَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ ، فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتى وَلَدَتْ غُلَاماً أَسْوَدَ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : هَلْ لَكَ منْ إِبل؟. قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا ؟. قَالَ حُمْرٌ . قَالَ: هَلْ فيهَا منْ أَوْرَقَ ؟. قَالَ: إِنَّ فيهَا لَوُرْقاً . قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلكَ؟. قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عرْقٌ. قَالَ: وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عرْقٌ) (٤).

---

(١)) أخرجه: البخاري- ك العلم- ب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْم قَوْمًا دُونَ قَوْم كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا (١ / ٣٧) ح(١٢٨)، ومسلم في الإيمان ب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ونسخ جواز الاستغفار للمشركين والدليل على أن من مات على الشرك فهو في أصحاب الجحيم ولا ينقذه من ذلك شيء من الوسائل (١ / ٦١) ح(٣٢).

(٢)) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (٣ / ٤٢٨).

(٣)) فتح الباري (١ / ٢٢٨).

(٤) أخرجه: مسلم في - ك اللعان –باب إذا عرض بنفي الولد- ٥/ ٢٠٣٢ ح ٤٩٩٩.

فهذا الرجل لديه الإبل فقرب إليه الحكم بأمر يدركه عقله، ولا يعلو على فهمه.

من خلال هذه الأحاديث نرى أنه ﷺ كان يخاطب الناس على قدر عقولهم وذلك أن المستمع إذا ما تلقى علماً لا يستوعبه أو أن حدود تجاربه الحيوية وطبيعته النفسية والحياتية وقدراته الفهمية والثقافية ومدركاته العقلية لا تستطيع إدراكه فإنه يؤدي به إلى عدم التوازن.

ولذلك قيل: (كل – بكسر الكاف – لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار) (١).

ومخاطبة الناس على قدر عقولهم لها أبلغ الأثر في المستمع حتى لا ينفض من سماع الحكم الشرعي، فالأسلوب الذي لا يناسب المستمع يكون فتنة عليه.

ومما يدلل على أن الحديث الذي يعلو على فهم المستمع يكون له فتنة ما أخرجه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه باب النهي عن الحديث بكل ما سمع عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ ».(٢)».

قال النووي: «..ففيه الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع، فقد كذب لإخباره بما لم يكن»(٣).

وهذا له أصل عند الأصوليين فقد ذكروا أنه يصح أن يكون عقل أكمل من عقل وأرجح(٤).

فالناس أصناف منهم العوام وكل صعوبة أو تعقيد قد يصرفهم عن الشرع. وهؤلاء لا تلقى عليهم المسائل العويصة، والتفاصيل الدقيقة، والبراهين المعقدة ، وهذا الصنف يحتاج إلى تقريب المسائل بصورة كبيرة. فهم يعتمدون على الحس والتأثير أكثر مما يعتمدون على جمع الأدلة وخلافات الأقوال.

---

(١)) فيض القدير - (٦ / ٥٣٢).
(٢)) صحيح مسلم (١ / ١٠)، وأبو داود في ك الأدب ب التشديد في الكذب(٤ / ٤٥٥) ح(٤٩٩٤).
(٣)) شرح النووي على مسلم - (١ / ٧٥).
(٤)) العدة في أصول الفقه (١/ ٩٤).

ومنهـم المتعلمون وهؤلاء يبحثون عن التحليل والاستنتاج والمعنويات ودلائل الإعجاز، وعند مخاطبتهم فإنه لابد من مراعاة ذلك.

فنبينـا ﷺ علمنا أن نحـدث كل شخص بما يتناسب وطبيعتـه، ونقرب له الحكم بطريقـة يدركهـا ولا تعلوا على فهمه، وهـذا ليس لأهل زمانه فحسب بـل لأهل كل زمان ومكان.

(٢) مخاطبة الناس بلهجاتهم:

إن النبـيّ عليـه الصلاة والسـلام كان يخاطب النـاس بلغاتهم ولهجاتهـم أحياناً ؛ وذلـك ليقرّب مفهوم الحديث ومعناه الذي يريد توصيله إليهم ؛ وليسهل عليهم معرفة الحكم الشرعي.

ومـن هذا مـا رواه الإمام أحمد عن كَعْبِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَـرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَيْسَ مِنْ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَرِ (١).

أي: ليس من البر الصيام في السفر. فانظر كيف استعمل هذه اللهجة، وترك لهجته القرشية، وذلك من أجل أن يفهم أهل هذه القبيلة ما يريد أن يبلغهم إياه.

فهـذه لغـة لبعض أهل اليمن يجعلون لام التعريف ميماً، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ خاطب بها هذا الأشعري لأنها لغته....(٢).

فهذا حكم شرعي خاطب به هؤلاء بلغتهم حتى يعرفوه، فعلى المفتى أن يتقن لغة من يفتيهم حتى يفهموا ما يريد أن يبلغهم إياه، ولا شك أن الأمة الآن بحاجة إلى من يتقن اللغات حتى تصل الأحكام إلى كل إنحاء الدنيا.

وقـد ذكر الأصوليون ذلك، وبينوا أن التحدث بهذه اللغات من البلاغة فقالوا: الْقَوْلُ فِي التَّرْجِيـحِ مِـنْ جِهَةِ الْمَتْنِ وَهُوَ بِاعْتِبَـارَاتِ الْأَوَّلُ - التَّرْجِيحُ بِحَسَبِ اللَّفْـظِ وَيَقَعُ بِأُمُورٍ (أَوَّلُهَـا) فَصَاحَةُ أَحَدِ اللَّفْظَيْنِ، مَعَ رَكَاكَةِ الْآخَرِ وَهَذَا إنْ قَبِلْنَا كُلًّا مِنْهُمَا، فَإِنْ لَمْ نَقْبَلْ

(١) أخرجه: الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤٣٤ ح (٢٣٧٢٩) وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح.
(٢)) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير - (٢ / ٤٤٩) وانظر: تحفة الأحوذي - (٣ / ٣٢٤).

الرَّكِيكَ، كَمَا صَارَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ، لَمْ يَكُنْ مِمَّا نَحْنُ فيه. وَقَالَ قَوْمٌ: يُرَجَّحُ الْأَفْصَحُ عَلَى الْفَصِيحِ، لِأَنَّ الظَّنَّ بِأَنَّهُ لَفْظُ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَقْوَى. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا يُرَجَّحُ بِهِ، لِأَنَّ الْبَلِيغَ قَدْ يَتَكَلَّمُ بِالْأَفْصَحِ وَالْفَصِيحِ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَعَ ذَوِي لُغَةٍ لَا يَعْرِفُونَ سِوَى(١).

(٣) تكرار الكلام ليتأكد من بلوغه للسامع وفهمه له.

كان ﷺ إذا تكلم تكلم ثلاثاً لكي يفهم عنه، فعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا)(٢)؛ وكان إذا تكلم تكلم فصلاً يبينه، فيحفظه من سمعه فعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ(٣).

وبهذا الأسلوب الواضح المتأني، وبهذا التكرار المفيد، يستوعب الصحابة الحديث فيحفظونه، وتثبت ألفاظه ومعانيه في العقل، وتنغرس الأفكار والألفاظ في النفوس، ويتمثلون حديث رسول الله عملاً وتطبيقاً في مجال حياتهم، ثم تصل إلينا نقية، لا شائبة فيها، حية بحيوية حامليها.

ومن الأحاديث التي ترى فيها هذا التكرار:

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: رغم أنفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ (٤).

وقد نجده ﷺ يردد الكلمة دون تحديد عدد، لبيان أهميتها كما في حديث أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ(٥).

---

(١)) البحر المحيط في أصول الفقه (٨/ ١٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري في ك العلم- ب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه - ١/ ٤٨ ح (٩٤).

(٣) أخرجه: البخاري في ك المناقب –ب صفة النبي ﷺ - ٣/ ١٣٠٧ ح (٣٣٧٤)، **ومسلم في – ك الزهد والرقاق - ب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم ٤/ ٢٢٩٨ ح (٢٤٩٣).**

(٤)) صحيح مسلم – ك البر والصلة والآداب- ب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (٤ / ١٩٧٨)ح(٢٥٥١).

(٥)) صحيح البخاري- ك الأدب ب عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ مِنْ الْكَبَائِرِ قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ (٨ / ٤) ح(٥٩٧٦).

فقد كرر رسول الله ﷺ قول الزور كثيراً حتى ضج بعض الصحابة ، ورجوا أن يسكت لما نالهم من خوف شديد لتهديده قائلي الزور ، وخوفٍ شديد على رسول الله ﷺ أن يناله الأسى.

وفي التكرار ما فيه من فوائد للمعلم والمتعلم، فإذا تكررت الكلمة حفظت لأن من الحاضرين من يقصر فهمه، فيكرره ليرسخ في الذهن ، وهو من الأساليب المفيدة في التعليم.

فإعادة الكلام المهم الذي يصعب على بعض الجالسين فهمه من أول وهلة أو لأول مرة، يكون لغرض التفهيم، فإذا فهمت لا يحتاج إلى إعادة، وإنما الإعادة للتفهيم.

وكذلك فإن الإعادة أقصاها ثلاث مرات، وأما الإعادة الكثيرة أكثر من ثلاث قد تمل، فالمسألة وسط لا إفراط ولا تفريط.

فالحكم الشرعي قد لا يفهمه الشخص من المرة الأولى، ومن ثم يحتاج إلى إعادة وتكرار.

فالتكرار ليصل المعنى إلى الجميع. ولزيادة إفهام الحاضرين الذين يصلهم الحكم بكامله، ولتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية، وليتخذ صفة القانون الأخلاقي أو التاريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث.

وقد ذكر الأصوليون: أن تكرر الْجمع مِنْهُ مَبْنِيّ على (كَانَ) هَل هِيَ لدوام الْفِعْل وتكراره، أَوله عرفا، أَو لَا مُطلقًا على أَقْوَال

وَالَّذي قَالَه القَاضي وَأَصْحَابه: إِنَّهَا لدوام الْفِعْل وتكراره، وَذكر القَاضي أَيْضا في " الْكِفَايَة ": هَل تفيد التّكْرَار؟ فِيهِ قَولَانِ، وَقَالَ المُوفق في " الْمُغني " وَأَتْبَاعه في اعْتِبَار التّكْرَار للْعَادَة (كَانَ) لدوام الْفِعْل وتكراره، وَاخْتَارَهُ القَاضي أَبُو بكر ابْن الباقلاني، وَأَبُو الطّيب، والآمدي وَغَيرهم ؛ لأَنَّهُ الْعرف كَقَوْل الْقَائل: كَانَ فلَان يكرم الضيفان، وَقد قَالَ الله تَعَالَى عَن إِسْمَاعِيل: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [مَرْيَم: ٥٥] أي: كَانَ يداوم على ذَلِك.(١).

(١)) التحبير شرح التحرير (٥/ ٢٤٣٦).

(٤) استخدام جواب الحكيم:

وذلـك بالإجابة على السائل بأكثر من مرمى سؤالـه لزيادة الفائدة؛ فقد كان ﷺ يبين للناس الأحكام جيداً حتى لا يبقى لسامع سؤال، ولا لسائل مشكل يقف عنده، حتى إنه كان يجيب السائل بأكثر مما سائله.

مثـال ذلك: ما روي عن أبي هريرة قـال: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنْ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا أَفَنَتَوَضَّأُ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ(١).

مع أنه سئل عن ماء البحر وطهارته فزاد حكماً آخر، وهو أن ميتته حلال، وهذا من حكمته في الجواب، حتى يستفيد السائل وغيره أحكاماً قد تدور ببالهم.

قـال الأصوليون: «وَرُبمَا اشْتَمَل الْجَواب عَمَّـا لم يَقع السُّؤَال عَنهُ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى (وَمَـا تلْكَ بيمينـك يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عصاي أتوكأ عَلَيْهَا وأهش بهَا على غنمي ولي فِيهَا مـآرب أُخْرَى) (طه: ١٧: ١٨) فَأجَاب عَمَّا سُئِلَ وَزَاد كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام وَقد سُئِلَ عَن مَاء فَقَالَ هُوَ الطّهُور مَاؤُهُ الْحل ميتَته»(٢).

(٥) توخي منهج التيسير والرحمة والبعد عن التعسير والشدة:

كـان ﷺ يأمـر بالتيسير، وينهى عـن التشديد والتعقيد، يحب أـن يأخذ المسلمون بالرخص كما يأتـون بالعزائم، وينهى عن التضييق في الأحكـام، وقد كان ﷺ يدعو إلى التيسير دائماً.

مـن ذلـك ما أخرجه الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه : أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ خَرَجَ إِلَى مَكَّـةَ عَامَ الْفَتْحِ فَصَـامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ(٣) وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ

---

(١) أخرجـه: أبـو داود في ك الطهـارة - ب الوضـوء بماء البحـر - ج١/صـ ٦٩ ح (٨٣)، والترمذي في ك الطهـارة ب مـا جاء في مـاء البحر أنه طهـور ج١/صـ١٠ ح (٦٩)، وقال: حسن صحيـح، والحاكم في المستدرك ك الطهارة ج١/ص٢٣٧ح (٤٩٠)، وابن خزيمة في صحيحه ك الطهارة ب الرخصة في الغسل والوضوء من ماء البحر إذ ماؤه طهور ميتته حل ج١/ص٥٩ ح (١١١)

(٢)) التبصرة في أصول الفقه (ص: ١٤٧).

(٣) بِضَمِّ الْكَاف وَالْغَمِيمُ بِفَتْح الْمُعْجَمَة وهِيَ نَعْفٌ مِنْ حَرَّة ضَجْنَانَ، تَقَعُ جَنُوبَ عُسْفَانَ بستَّة عَشَرَ كَيْلًا عَلَى الْجَادَّة إِلَى مَكَّةَ، أَيْ عَلَى (٦٤) كَيْلًا مِنْ مَكَّةَ عَلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ، وَتُعْرَفُ الْيَوْمَ بِبَرْقَاءِ الْغَمِيمِ، ذَلِك أَنَّهَا

قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ الصِّيَامُ، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ فِيمَا فَعَلْتَ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَشَرِبَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَأَفْطَرَ بَعْضُهُمْ وَصَامَ بَعْضُهُمْ فَبَلَغَهُ أَنَّ نَاسًا صَامُوا فَقَالَ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ.(١).

فكان رفيقاً بالمسلمين لا سيما الذين يجهلون الأحكام، أو من كان حديث عهد بالإسلام.

وعن أَبَي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِى الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِىُّ ﷺ « دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ ، أَوْ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ »(٢).

وفيه الرفق في إنكار المنكر، وتعليم الجاهل، واستعمال التيسير، وإنكار التعسير.

وقد استدل الأصوليون بهذا الحديث وأمثاله على اعتبار المصلحة الراجحة، أو المفسدة الراجحة دون عكسها(٣).

(٦) استخدام الشدة عند الحاجة.

فقد كان ﷺ كالطبيب المعالج، فالطبيب الذي يعطي للمريض الإبرة يعلم تمام العلم أن الإبرة تؤلمه وتوجعه، والطبيب الذي يقضي ببتر ساق المريض يعلم أن بتر الساق يؤلم؛ ولكنه لدفع شر أعظم، وقد استعمل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك، فقال: (مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا)(٤).

بَرْقَاءُ فِي تَكْوِينِهَا. وَالْبَرْقَاءُ وَالْأَبْرَقُ وَالْبُرْقَةُ: مُرْتَفَعٌ تَخْتَلِطُ فِيهِ الْحِجَارَةُ بِالرَّمْلِ. (المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ١ ٣٨٨، معجم البلدان ٤/ ٢١٤).

(١) ( ) أخرجه: الترمذي في – ك الصوم ب ما جاء في كراهية الصوم في السفر ج٣/ص٨٩ ح (٧١٠)، وقال: حسن صحيح . وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ فَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ حَتَّى رَأَى بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ الْإِعَادَةَ إِذَا صَامَ فِي السَّفَرِ وَاخْتَارَ أَحْمَدُ وَإِسْحَقُ الْفِطْرَ فِي السَّفَرِ وَ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ إِنْ وَجَدَ قُوَّةً فَصَامَ فَحَسَنٌ وَهُوَ أَفْضَلُ وَإِنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ .

(٢) أخرجه: البخاري في ك الوضوء –باب صب الماء على البول في المسجد– ١/ ٨٩ ح (٢١٧).

(٣)) القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير (١/ ٩٦).

(٤)) أخرجه: أحمد في المسند (٣٥ / ١٤٢) ح (٢١٢١٨)، والبخاري في « الأدب المفرد » (٩٦٣ ، ٩٦٤) والنسائي في الكبرى– ك السير ب إعضاض من تعزى بعزاء الجاهلية) (٥ / ٢٧٢) ح(٨٨١٣) كلهم عن أبي، وصححه الألباني .(السلسلة الصحيحة (١ / ٢٦٨).

إذاً: يجـوز استعمال كلمـات شديدة ، على ألا تكون ديدناً متبعـاً في كل الأحيان، بل عنـد وجود المرض فقط، إذا كان الذي أمامك لا ينزجر إلا بكلمة شديدة فاشتدّ حينئذ حتى ينزجر ثم ارجع إلى مقامك الأول من حسن الخلق وطيب الكلام.

وفي صحيـح مسلم عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد عَنْ أَبيه قَالَ نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَات أَصَبْتُ سَيْفًا فَأَتَى به النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه نَفِّلْنيه. فَقَالَ: ضَعْهُ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ : ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: نَفِّلْنيه يَا رَسُولَ اللَّه فَقَالَ: ضَعْهُ فَقَامَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه نَفِّلْنيه أَوُجْعَلُ كَمَنْ لَا غَنَاءَ لَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ : ضَعْهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ قَالَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ(١).

فينتقل الأسلوب ويتغير على حسب حال من هو أمامك، إذا احتاج إلى شدة استعملت معه، وإلا رجعنا إلى أصلنا من الكلم الطيب والحديث الحسن العذب.

فالمفتـي كالوالد الذي يعاقبه ولده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حرْصاً على ما يُصلحه من باب: فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ(٢)

بـل قد يستعمل الشدة في الحكم فحين تعرض يوما لمن يتركون صلاة الجماعة فقال كمـا في حديث أبي هريرة: (وَالَّـذي نَفْسي بيَده لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُـرَ بحَطَب فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بالصَّلَاة فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالفَ إلَى رِجَال فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ) (٣).

فممـا تقدم من الأحاديث يُعلم أن الشريعة الإسلامية الكاملة جاءت باللين في محله والغلظـة والشـدة في مجالهما، فعلى المفتي أن ينظر في حـال المستفتي وقبل الفعل وبعد الفعل.

---

(١)) صحيح مسلم – ك الجهاد والسير-باب الأنفال - (٣ / ١٣٦٧) ح(١٧٤٨).

(٢)) ديوان أبي تمام - (ص٢٠٧).

(٣)) أخرجـه البخـاري في: ك الأذان ب الْكَلَام إذَا أُقيمَتْ الصَّـلَاةُ (١ / ١٣٠) ح (٦٤٤)، ومسلم: (ك المساجـد ومواضع الصلاة فيها ، ب فضل صلَاة الجماعـة وبيان التشديد في التخلف عنها (١ / ٤٥١) ح(٦٥١).

(٧) تخصيص دروس للنساء:

كان النساء يسألن رسول الله ﷺ فيجيبهن عن أمور دينهن، ولم يكن ذلك صدفة أو نادراً، بل خصص لهن أوقاتاً خاصة يجلسن فيها إليه، ويتلقين عنه تعاليم الإسلام ويفتيهن، قَالَتْ عَائِشَةُ: (نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ) (١).

بل لقد طلبن منه أن يجعل لهن يوماً وقد فعل، فقد أخرج البخاري بسنده إلى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: قَالَتْ: النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ فَقَالَتْ: امْرَأَةٌ وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَتَيْنِ(٢).

فلم تكن مجالسه ﷺ قاصرة على الرجال بل كان كثير من النساء يحضرن المسجد أيضا ويستمعن إلى حديثه الشريف وفي الاجتماعات العامة كالاجتماع بصلاة العيد كن يخرجن جميعا إلى المصلى لاستماع الموعظة النبوية وكان النبي ﷺ بعد أن يلقي خطبة العيد في الصفوف الأمامية للرجال ينتقل إلى صفوف النساء يتحدث إليهن ويعلمهن إلا أن المجالس النبوية بوجه عام كانت الغلبة فيها للرجال دون النساء لذلك جاء وفد النساء إلى رسول الله ﷺ وطلبن إليه أن يجعل لهن يوماً يعلمهن فيه فكان النبي ﷺ يجيبهن إلى ذلك، على أن هذه الدروس كلها من عامة وخاصة لم تكن قائمة بحوائج النساء الدينية فكثيرا ما كانت تتجدد لهن شؤون ولاسيما وهن حديثات عهد بالإسلام فكانت المرأة تقصد رسول الله ﷺ فيما يعرض لها من أمر دينها ولا تستحيي أن تسأله لعلمها أنه لا حياء في التعلم وربما قدمت بين يدي سؤالها قولها «يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق» ثم تذكر حاجتها كما في حديث أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْم امْرَأَةُ أَبِي طَلْحَةَ الأَنْصَارِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا

(١) أخرجه: البخاري معلقاً في ك العلم ب الحياء في العلم - ١/ ٦٠، ومسلم في - ك الحيض - ب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم- ١/ ٢٦٠ ح (٦١).

(٢) أخرجه: البخاري في -ك العلم- ب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم - ١/ ٥٠ ح (١٠١).

هِـيَ احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ :« نَعَـمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ ». (١) وكثيرا ما يكـون ذلك في نساء الأنصار حتـى امتدحتهـن عائشة كما سبق ، أما من كان يغلـب عليها الحياء منهن فكان لها من أمهات المؤمنين أعظم وسيط لدى رسول الله ﷺ يستوضح لها عن جواب سؤالها.

(٨) الاستعانة بأصحاب الخبرات في الأمور التي يحسنونها.

فقـد كان يستعين بأهل الخبرات فيما يحسنونه مـن أمور الدنيا، لأنهم أعلم بشئونهم فعَـنْ أَنَـس قَالَ سَمِعَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَصْوَاتًا فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ لَوْ تَرَكُوهُ فَلَمْ يُلَقِّحُوهُ لَصَلُحَ فَتَرَكُوهُ فَلَمْ يُلَقِّحُوهُ فَخَرَجَ شِيصًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا لَكُمْ قَالُوا تَرَكُوهُ لِمَا قُلْتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ فَإِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ (٢).

فمـا ذكره الرسول ﷺ للصحابة كان من قبيـل الرأي المتعلق بأمور المعاش القائم على الخبرة البشرية التي قد يتاح منها لبعض الناس ما لا يتاح لغيرهم، ولم يكن كلاما على سبيل التشريع.

فـلا يقاس عليـه إلا ما جرى مجراه وكان على شاكلته، وهـو الخبرة العملية المتعلقة بشأـن مـن الشئون المباحة التي لم يتعلـق بها الخطاب الشرعي لا أمـراً ولا نهياً، وليس المراد بذلك كل أمر متعلق بالدنيا، لأنه قد جاءت نصوص شرعية كثيرة في أمور الدنيا، وقد تعلق بها الخطاب الشرعي أمراً ونهياً، فكانت بذلك موكولة إلى الشرع يبين حلالها وحرامهـا ومـا يصح منها وما لا يصـح إلى غير ذلك من تفاصيلهـا المطلوبة، ولم تكن موكولـة إلى المسلمين -أـو إلى غيرهم- يجتهدون فيها أو يعملون فيها بمقتضى عقولهم أو مصالحهم أو أهوائهم(٣).

قـال القاضي عياضـ: «فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيـا التي لا مدخل فيها بعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيه ما ذكرنا(٤) إذ ليس في هذا كله نقيصة

(١)) أخرجـه: البخـاري معلقـاً في ك العلـم ب الحياء في العلـم - ١/ ٦٠، وأحمـد في المسند (٤٤/ ١١٠) ح(٢٦٥٠٣).

(٢)) أخرجـه: مسلـم ك الفضائل ب وجوب امتثال ما قاله شرعـا دون ما ذكره ﷺ **من معايش الدنيا على سبيل الرأي** ٤/ ١٨٣٦) ح(٢٣٦٣)

(٣)) المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام (٣ / ٢٣٦).

(٤)) أي من وقوع الخطأ.

ولا محطـة، وإنما هـي أمور اعتيادية يعرفها من جربها، وجعلهـا همه وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا (الخطأ) إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النـادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيـا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة"(١).

وكذلـك الأمر بالنسبة لأحكام البشر الجارية على يديـه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية يجتهد فيها برأيه(٢).

وكـان يأخذ برأـي الصحابة في الأمور التـي يحسنونها، فقد أخـذ برأي الحباب بن المنذر(٣) في غزوة بدر. فقد قال له الحباب: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أم هـو الرأي والحـرب والمكيدة؟ قال: «لا بل هـو الرأي والحرب والمكيـدة» ، قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى نأتي أدنى ماء من القـوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، فنشرب ولا يشربون، فقال: «أشرت بالرأي» ، وفعل ما قاله(٤).

بهـذه الـروح الطيبة، والنفس الساميـة كان رسول الله ﷺ يعلـم أصحابه أحكام الإسـلام، ولم يكن بين الرسول الكـريم والمسلمين حاجب كالملـوك والقياصرة، بل كان المسجد معهده يعلم فيه المسلمين أمور دينهم، وقد يرونه في الطريق فيسألونه فيجيبهم، وقـد يعترضونه في مناسكه وحجه، أو على راحلتـه يستفتونه فيفتيهم، فينقل السامعون لهذه الإجابة ما سمعوه إلى إخوانهم في كل مكان. ولقد كان هذا المنهج كفيلاً بأن يحقق مـا كان يريده الرسول الكـريم من تعليم الصحابة وتربيتهم وتطبيـق أحكام الشريعة، وكفيلاً بأن يثبت تلك الأحكام والتعاليم في نفوسهم(٥).

هكذا كان أسلوبه في تعليم الصحابة أمور دينهم ودنياهم ، وفي صياغة الفتوى، وهذا المنهج كفيل بأن يصنع مفتياً لا يصطدم مع الشرع ويلاءم العصر.

---

(١)) الشفا (٢/ ٨٧٢، ٨٧٣).

(٢)) حقوق النبي ﷺ **على أمته في ضوء الكتاب والسنة** - (١ / ١٥٨).

(٣)) الحبـاب بـن المنذر بن الجمـوح الأنصـاري الخزرجي، شهـد بدرا، مـات في خلافة عمـر. الإصابة (٣٠٢/١).

(٤)) الشفـا للقاضـي عياض (٢/ ٨٧١، ٨٧٢) وأخرجه البيهقـي في دلائل النبـوة (٣/ ٣١- ٣٥)، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا (ص ٨٠) لابن اسحاق والبيهقي عن عروة والزهري وجماعة.

(٥) ينظر : السنة قبل التدوين – محمد عجاج خطيب – ص٣٢ : ص٥٥ بتصرف واختصار.

المبحث الثاني

كيف كان الصحابة يأخذون منه الفتوى؟

لقد عاين الصحابة الوحي والتنزيل، وكانوا يسألون عن كل ما يقع لهم في أمور دينهم ودنياهم، فأخذوا التشريع من المشرع مباشرة بعدة طرق منها:

(١) حوادث كانت تقع للرسول نفسه.

فيبين حكمها، وينتشر هذا الحكم بين المسلمين بمن سمعوه منه، وقد يكون هؤلاء كثرة تمكنهم من إذاعة الخبر بسرعة، وقد يكونون قلة فيبعث الرسول ﷺ من ينادي في الناس بذلك الحكم.

مثال ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَسَأَلَهُ كَيْفَ تَبِيعُ فَأَخْبَرَهُ فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ أَدْخِلْ يَدَكَ فِيهِ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَبْلُولٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ)[1] (معناه: ليس على سيرتنا ومذهبنا). فهذه حادثة وقعت للنبي ﷺ فبين الحكم أمام الصحابة فنشروه بين الناس.

(٢) حوادث كانت تقع للمسلمين.

كانت تقع بعض الحوادث للمسلمين فيسألون الرسول عنها، فيفتيهم ويجيبهم، مبيناً حكم ما سألوا عنه، من هذه الحوادث ما يتناول خصوصيات السائل نفسه، ومنها ما يتعلق بغيره، وجميعها من الوقائع التي تعرض للإنسان في حياته فترى الصحابة لا يخجلون في ذلك كله، بل يسرعون إلى المعلم الأول، ليقفوا على إجابة تشفي الغليل وتنير الطريق.

مثال ذلك ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً فَأَمَرْتُ

(١) أخرجه: مسلم في ك الإيمان -بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا- ١ / ٢٦٧ ح(١٤٧)، أبو داود في: ك البيوع- ب النهي عن الغش٢/ ٢٩٤ ح (٣٤٥٢).

الْمِقْدَادَ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «فِيهِ الْوُضُوءُ»[1]. فالصحابة رضوان الله عليهم كانت تقع لهم الحوادث فيستفتون رسول الله ﷺ فيفتيهم.

(٣) وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول ﷺ.

وهذه كثيرة في صلاته وصيامه وحجه وسفره وإقامته .... فنقلوها إلى التابعين الذين بلغوها إلى من بعدهم. ومن ذلك ما رواه سالم بن عبد الله عن أبيه ابن عمر قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ يَمْشُونَ أَمَامَ الْجَنَازَةِ "[2].

بهذه الطرق تلقى الصحابة الفتاوى، ونقلوها لمن بعدهم.

من خلال هذا الفصل نرى أن النبي ﷺ وضع منهجاً للمفتين ينتهجونه في كل عصر ومصر، منهج يقوم على التيسير على متلقي الفتوى دون تعصب أو تعسف أو تحيز، فهو يجعل الحكم يصل بكل سهولة ويسر.

(١) أخرجه: البخاري في – ك العلم –ب من استحيا غيره بالسؤال – ١/ ٦١ ح (١٣٢).

(٢) أخرجه: أبو داود في – ك الجنائز – ب المشي أمام الجنازة – ٢/ ٢٢٢ ح (٣١٧٩)، والترمذي في ك الجنائز – ب ما جاء في المشي أمام الجنازة –٣/ ٣٢٩ ح (١٠٠٧)، وقال: وأهل الحديث كلهم يرون أن الحديث المرسل في ذلك أصح، وصححه الألباني .(صحيح سنن أبي داود).

الفصل الثاني

مواقف لرسول ﷺ تجاه المستقبل

لقد كانت لرسول الله ﷺ مع المستقبل مواقف توضح نظرته له، وما ينبغي أن يفعل وما ينبغي أن يترك من أجل هذا المستقبل نظرة تظهر من خلال المباحث التالية.

المبحث الأول

استحضاره لليوم الآخر .

كان النبي ﷺ يذكر أصحابه دائما باليوم الآخر ، وذلك لأنه يجعل المسلم يسارع إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، وامتثال أوامر الشرع، ففي اليوم الآخر تسلية للمؤمن عما يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها، ويعلم أن عمله لا يضيع بل سيجزى به بدار النعيم المقيم، والركون إلى الدنيا من أعظم أسباب التقاعس عن العمل الصالح، لذلك كان النبي ﷺ يذكرهم باليوم الآخر، وهو المستقبل الذي تؤول إليه حياتهم الأخروية، فهي إما إلى الجنة أو إلى النار.

من ذلك ما روي عَنْ أَبِي شُرَيْح أَنَّهُ قَالَ لعَمْرو بْن سَعيد وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ به النَّبِيُّ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْم الْفَتْح سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ به حَمدَ اللَّه وَأَثْنَى عَلَيْه ثُمَّ قَالَ إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ فَلَا يَحِلُّ لامْرِئ يُؤْمِنُ بِاللَّه وَالْيَوْم الْآخر أَنْ يَسْفكَ بهَا دَمًا وَلَا يَعْضدَ بهَا شَجَرَةً فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقتَال رَسُول اللَّه ﷺ فيهَا فَقُولُوا إِنَّ اللَّه قَدْ أَذنَ لرَسُوله وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذنَ لِي فيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَار ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ مَا قَالَ عَمْرٌو قَالَ أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ

يَا أَبَا شُرَيْحٍ لَا يُعِيذُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ وَلَا فَارًّا بِخَرْبَةٍ(١).

فهنا ذكرهم باليوم الآخر حتى يمتثلوا أوامر الشرع.

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ»(٢).

وفي ثالث عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ الشَّأْمِ دَعَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِصُفْرَةٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَمَسَحَتْ عَارِضَيْهَا وَذِرَاعَيْهَا وَقَالَتْ إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَغَنِيَّةً لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا(٣).

ثم إنه كان يذكرهم بالجنة التي ستنال بالصالحات، فلا بد من ذكر الجزاء، فعن أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ(٤).

عن أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ أَوْ بُنِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهِنَّ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ فَقَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ فَمَا بَرِحْتُ أُصَلِّيهِنَّ بَعْدُ(٥).

وهذا جعل الصحابة يسارعون إلى فعل الخيرات فعن عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول ﷺ × إنكم قد أكثرتم وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول من بنى مسجدا لله تعالى قال بكير حسبت أنه قال

---

(١) أخرجه: البخاري- ك العلم - ب لِيُبَلِّغْ الْعِلْمَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ - (١ / ٣٢) ح(١٠٤)، ومسلم ك الحج ب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام - (٢ / ٩٨٧) ح(١٣٥٤).

(٢) أخرجه: البخاري ك الجمعة ب فِي كَمْ يَقْصُرُ الصَّلَاةَ وَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَلَيْلَةً سَفَرًا - (٢ / ٤٣) ح(١٠٨٨)، ومسلم – ك الحج ب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره - (٢ / ٩٧٥) ح(١٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري: ك الجنائز ب حَدِّ الْمَرْأَةِ عَلَى غَيْرِ زَوْجِهَا - (٢ / ٨٧) ح(١٢٨٠)، ومسلم – ك الطلاق- ب وجوب الإحداد في عدة الوفاة وتحريمه في غير ذلك إلا ثلاثة أيام) (٢ / ١١٢٣) ح(١٤٨٦).

(٤) صحيح البخاري- ك مواقيت الصلاة ب فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ طوق النجاة - (١ / ١١٩) ح(٥٧٤).

(٥) أخرجه: مسلم ك صلاة المسافرين وقصرها ب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن ١/٥٠٣ح(٧٢٨).

يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة(١).

ولما سمع الخليفة الثالث - عثمان بن عفان - قول الرسول ﷺ فهم من ذلك تحسين البناء وتطويره حتى يكون بيته في الجنة بقدر تحسينه للمسجد وإتقانه، ومن هنا بني المسجد بالحجارة المنقوشة، وجعل أعمدته من الحجارة بدلا من جذور النخل، وسقفه بالساج بعد الجريد، وجصصه، وأحكمه.

إن الدوافع التي حدت بعثمان أن يفعل ذلك على غير سابقة دوافع ذاتية، ألم ترى أنه أراد أن يكون بيته في الجنة على غرار بناء المسجد وإتقانه، إن رغبته فيما عند الله، وإيثاره الآخرة على الدنيا هما الدافعان الحقيقيان لهذا التطوير والتجديد.

وعثمان ـــ رضي الله عنه ـــ وإن تعرض بسبب ذلك للنقد والقيل والقال، إلا أن هدفه كان أسمى من أن يحجزه عنه نقد أو اعتراض، فالدافع هنا هو سبب ذلك الإبداع في البناء، وتطلع عثمان ـــ رضي الله عنه ـــ إلى ما عند الله كان القوة الدافعة التي جعلته يستهين بعقبات الدنيا مهما كان حجمها، ومهما كانت عواقبها(٢).

(١)) صحيح مسلم - ك المساجد ومواضع الصلاة - ب فضل بناء المساجد والحث عليها) (١ / ٣٧٨) ح(٥٣٣).

(٢)) انظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - (٢٤ / ٢٧٧).

المبحث الثاني

النظر الدائم للمستقبل

إنّ الدارس لسيرة النبي ﷺ يجد أنّ خطواته المباركة في كلّ مرحلة من المراحل الدعوية تسير وفق خطة محكمة مستبصرة ؛ قال الله تعالى : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف : ١٠٨] .

ولقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلى المستقبل دائماً حتى في أحلك المواقف وأحرجها، فها هو ذا يقول لخباب بن الأرت(١) لما شكى له الشدة التي أصابت الصحابة في العهد المكي : ... والله ليتمّنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون.(٢) .

ويقول لسراقة بن مالك (رضي الله عنه) (٣) : كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟!(٤) .

ويقول وهو يحفر الخندق ، عندما اجتمعت عليه الأحزاب : اللَّه أَكْبَرُ أُعْطيت مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي ... اللَّه أَكْبَرُ أُعْطِيت مَفَاتِيحَ فَارِسَ

---

(١)) خباب بن الأرت من بنى سعد بن زيد مناة حليف بنى زهرة كنيته أبو يحيى وقد قيل أبو عبد الله مولى ثابت بن الأرت بن أم أنمار الخزاعية مات بالكوفة منصرف على من صفين سنة سبع وثلاثين وهو بن خمسين سنة وصلى عليه على بن أبى طالب.(الثقات لابن حبان - (٣ / ١٠٦) ت(٣٥١) ، الإصابة في تمييز الصحابة - (٢ / ٢٥٨) ت(٢٢١٢).

(٢) أخرجه : البخاري في ك المناقب ، ب علامات النبوة في الإسلام (٦١٩/٦) ، رقم (٣٦١٢) وفي ك مناقب الأنصار ، ب ما لقي النبي ﷺ **من المشركين بمكة** (١٦٤/٧ ١٦٥) **رقم (٣٨٥٢)** .

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم بضم الجيم والمعجمة بينهما عين مهملة الكناني ثم المدلجي أبو سفيان صحابي مشهور من مسلمة الفتح مات في خلافة عثمان سنة أربع وعشرين وقيل بعدها.(تقريب التهذيب - (ص٢٢٩) ت (٢٢١٦) ، الإصابة في تمييز الصحابة (٣ / ٤١) ت(٣١١٧).

(٤) أخرجه : النسائي في الجهاد، ب غزوة الترك والحبشة ٤٣/٦ (٣١٧٦) ، عن أبي سكينة وقال الألباني : حسن (صحيح الجامع (٣٣٨٤) ، أبو نعيم في دلائل النبوة (٢ / ١٤) ح(٤١٤) ، والخطيب في تاريخ بغداد - (١ / ١٣١) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق - (١ / ٣٩١) ،عن البراء بن عازب.

وَاللَّه إنيِّ لأُبْصِرُ الْمَدَائنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ منْ مَكَاني هَذَا .. اللَّه أَكْبَرُ أُعْطِيت مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّه إنيِّ لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ منْ مَكَاني هَذَا (١).

إنّ رسول الله ﷺ وضع بين عينيه أهدافاً جليلة بعيدة المدى ، ثم استحث النفوس الحية والهمم العالية للوصول إليها ، دون أن تصاب بالإحباط أو اليأس لعارض طارئ من العوارض القريبة ، فهي دعوة لتوسيع الأفق وتعميق النظر والانطلاق إلى تلك الرحاب الواسعة لاستشراف آفاق المستقبل غير المنظور، ومن ثم : السعي الحثيث لاستثمار الحاضر بكل إمكاناته لبناء المستقبل وترسيخه وإزالة عوائقه ومشكلاته .

إنّ سعة الأفق والنظر إلى المستقبل تجعل الإنسان يدرك تماماً : ماذا .. ومتى .. وكيف يعمل ، فهو يتحرك برؤية واضحة وخطى مرسومة ، وها هو ذا يوسف (عليه الصلاة والسلام) يرسم خطته الاقتصادية بالاستفادة من سنوات الرخاء المشهودة ، لمواجهة سنوات الشدة المتوقعة ؛ قال الله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف : ٤٧-٤٨] .

وإن شعار (المستقبل لهذا الدين) شعار صحيح بلا شك ، دلت عليه الدلائل الشرعية المتواترة ، ولابد من معرفة شروط التمكين وموانعه ، والعمل على إعداد الأمة وبنائها ، ورسم الخطط المستقبلية الكفيلة بتيسير سبيل ذلك وإنجازه (٢) .

بل إن المؤمن إذا سمع قول الرسول ﷺ : "إذا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا "(٣) لا يسعه إلا أن يواصل العمل ليل

---

(١) أخرجه: أحمد في المسند ٣٠ / ٦٢٥ ح(١٨٦٩٤) ، والنسائي في الكبرى ك السير ب الوقود والاصطناع بالليل (٥ / ٢٦٩) ح(٨٨٠٧) ، وحسن سنده الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ٢٨٠)؛ عن البراء بن عازب انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٤٤٨-٤٤٩) .

(٢) أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب ، محمد محمود الصواف ، ص٧ ، وانظر: مجلة البيان - (٨٦ / ٥٥).

(٣)) أخرجه: أحمد في المسند (٢٠ / ٢٥١) ح(١٢٩٠٢) ، والبزار في مسنده (٢ / ٣٥٥) ح(٧٤٠٨) والطيالسى (ص ٢٧٥ ، رقم ٢٠٦٨) ، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٣٦٦ ، رقم ١٢١٦) ، والبخارى فى الأدب المفرد (١٦٨/١ ، رقم ٤٧٩) ، كلهم من حديث أنس ، وقال الهيثمى : رجاله أثبات ثقات . مجمع الزوائد (٦٣/٤).

نهـار، ويبذل جهده صباح مسـاء، وكيف لا ونتيجة هذا السعي ستعرض على الله، وثمار هذا البذل ستكون في كفة حسناته يوم يلقى الله وكيف لا والأمر الرباني الكريم يلاحقه في كل حين. ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (التوبة ١٠٥) .

والناظـر لهـذا الحديـث مـن أول وهلـة يتسـاءل إذا غرست هـذه الفسيلـة ومات النـاس جميعاً بعد قيـام الساعة فمن سيستفيد منها؟ هنا يعلمنـا الرسول هذا الدرس العظيم ،بأننا علينا العمل فقط، وليس علينا تحصيل النتائج لأننا لسنا مطالبين بها.

إن أى أمر غيبى يجب أ لا يدعو إلى السكون والراحة والدعة، بل يدعو إلى مزيد من العمل لمنع شر يأتى.

ولعل آخر ما كان يدور في ذهن السامعين أن يقول لهم الرسول ﷺ ذلك الحديث!؛ ولعلهم توقعوا أن يقول لهم الرسول الذي جاء ليذكر الناس بالآخرة، ويحثهم على العمل لهـا، ويدعوهـم إلى تنظيف ضمائرهـم وسلوكهم من أجل اليوم الأكـبر: يوم الحساب الـذي تدان فيه النفوس.. لعلهم توقعوا أن يقول لهم: فليسـرع كل منكم فليستغفر ربه عمـا قدمت يداه، وليتوجه لله بدعوة خالصة أن يميتـه على الإيمان ويقبل توبته ويبعثه علـى الهدى.. ولعلهم توقعوا أن يقول لهم: أسرعوا فانفضوا أيديكم من تراب الأرض.. وتطهـروا. اتركـوا كل أمـور الدنيا وتوجهـوا بقلوبكـم إلى الآخرة. انقطعـوا عن كل ما يربطكم بالأرض. اذكروا الله وحده. توجهوا إليه خالصين من كل رغبة في الحياة، حتى إذا ذهبتـم إلى ربكـم، ذهبتم وقد خلصت نفوسكم إليه، فيقبـل أوبتكم ويظلكم بظله، حيـث لا ظـل إلا ظله. ولو قال لهـم ذلك فهل من عجب فيه؟! أليـس الطبيعي وقد تيقن النـاس من القيامـة أن ينصرفوا للحظـة المرهوبة؟ أليس الطبيعـي والهول المهول على الأبـواب أن ينسلخ الناس من كل وشيجة تربطهـم بالأرض، ويتطلعوا في رهبة الخائف وذهول المرتجف إلى قيام اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد؟!

فـإذا قال لهم الرسول ﷺ : لا تقفوا مذهولـين مرجوفين مرعوبين، ولكن توجهوا إلى الله أـن ينقذكم من هذا الكرب العظيم، أخلصوا له الدعاء فهو قريب يجيب دعوة

الداعـي إذا دعـاه. ﴿وَلَا تَأْيَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَأْيَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف : ٨٧). هلموا تطهروا، وصلوا إلى الله خاشعين(١).

ولكنه يدعوهم إلى التخطيط للأعمال الميستقبلية، حتى ولو شعروا بدنو القيامة، بل ولو بالقيامة نفسها، على الرغم من أن فسيلة النخل التي لا تثمر إلا بعد سنين.

التخطيـط الدقيق لمستقبل الأمـة ، وتطلعات الأجيال، فالـذي يغرس قد لا يأكل من غرسه، ولكن باب غرس غيرنا فأكلنا ونحن نغرس ليأكل غيرنا.

وهـذا التخطيـط يشمل جميع مناحي الحيـاة: الدعوية ، والعلميـة ، والاقتصادية ، والعسكرية ، وغيرها.

(١)) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (١١ / ١٥٢).

المبحث الثالث

تشريعه لصالح الأجيال القادمة من المسلمين.

كان ﷺ يعمل من أجل الأجيال القادمة فقد ناداه جبريل بعد أن آذه قومه ودعا ربه فقال : إنَّ اللّه قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّه وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا (١).

فالرسول ﷺ لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فَكَان رسول الله ﷺ - كما أخبر الله في آيات القرآن - يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان، ويقول الحق : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦]. فلقد كان حرصه على الأبناء الذين لم يولدوا أشد من حرصه على الآباء الذين أنكروا الرسالة.

ومن تشريعته من أجل الأجيال القادمة حرصه على إبقاء المال للوارث حتى لا يصير عالة على المجتمع.

فعن سَعْد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه قال جاء النبي ﷺ يَعُودُنِي وأنا بِمَكَّةَ وهو يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ التي هَاجَرَ منها قال يَرْحَمُ اللّه بن عَفْرَاءَ قلت يا رَسُولَ اللّه أُوصِي بِمَالِي كُلِّه قال لَا قلت فَالشَّطْرُ قال لَا قلت الثُّلُثُ قال فَالثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ من أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ الناس في أَيْدِيهِمْ وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ من نَفَقَة فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حتى اللُّقْمَةُ التي تَرْفَعُهَا إلى في امْرَأَتِكَ وَعَسَى اللّه أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ ولم يَكُنْ له يَوْمَئِذٍ إلا ابْنَةٌ (٢).

---

(١)) أخرجه: البخاري، في ك بدء الخلق ب ذكر الملائكة (٤ / ١١٥) ح(٣٢٣١) ، ومسلم في ك الجهاد والسير، ب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣ / ١٤٢٠) ح(١٧٩٥).

(٢)) أخرجه : البخاري في - ك الوصايا - ب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس - ١٠٠٦/٣

فالرسول يعلم أن إنفاق كل المال سيجعل الورثة عالة يتكففون الناس، وهذا يعود بالضرر عليهم. وكل تشريع فيه تيسير على الأمة كان معظمه من أجل الأجيال القادمة لأن الضعف في الأجيال التالية أكثر من السابقه.

من خلال ما سبق نرى أن رسول الله ﷺ كانت له مواقف تجاه المستقبل تظهر من خلال تذكيره باليوم الآخر ونظرته الدائمة للمستقبل وتخطيطه للأجيال القادمة، فتشريعاته ليست لزمن واحد بل لكل الأزمان.

– ح (٢٥٥٩١)، وفي ب الوصية بالثلث – الحديث ٢٥٩٣ ، وفي ك المغازي – ب حجة الوداع – ٤/ ١٦٠٠ – الحديث ٤١٤٧، ومسلم في – ك الوصية – ب الوصية بالثلث – ٣/ ١٢٥٠ – الحديث ١٦٢٨

الفصل الثالث

نماذج من الأحاديث التي تدل على

استشراف المستقبل.

لا شك أن السنة النبوية ميدانها واسع فيجد كل صاحب بغية مبتغاه، فالنماذج لكل موضوع كثيرة لا تحصى لذلك أخذت بعضها وتركت الكثير مخافة الطول، فليس كل حديث يدخل في موضوعنا أدخلته هاهنا، وإنما هي نماذج جاءت في مباحث على النحو التالي.

المبحث الأول

الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور العبادات.

إن العبادة الغرض منها القرب من الله، وهى الغاية الأولى من خلق الإنسان، وهي مبنية على الحب والرغبة في الأداء، ولقد حث الشارع على التيسير فيها، بحيث لا يمل المسلم من أدائها، وبخاصة في العصور التي يكثر فيها الترف واللهو.

ولقد جعل الشارع بعض العبادات مستحبة غير واجبة من أجل التيسير على الأمة، بل ومن أجل توقع المشقة في المستقبل.

فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ. (١).

أخبر ﷺ عن مراده فيما كان يفعل لولا المانع، فهو إخبار لهم عما كان يفعل في

(١)) أخرجه البخاري في مواضع ، منها : ك الجمعة ب السواك يوم الجمعة (٢ / ٤) ح(٨٨٧)، ومسلم في ك الطهارة ب السواك ١ / ٢٢٠ (٢٥٢) .

المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عما هو في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور(١).

واستشرافه للمستقبل من أعلام نبوته، فهو لا يشرع لجيل الصحابة وحسب بل تشريعه لكل زمان ومكان.

وقد كان يمنع من بعض العبادات المستحبة درءاً للفتنة المحتملة.

من ذلك ما روي عَنْ أم حُمَيْد امْرَاة أبي حُمَيْد السَّاعديِّ ؛ انَّهَا جَاءَت النَّبيَّ ﷺ . فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللّه إنيِّ أُحبُّ الصَّلاةَ مَعَكَ ، قالَ : قَدْ عَلِمْتُ انَّك تُحبِّينَ الصَّلاةَ مَعي . وَصَلاتُك في بَيْتك خَيْرٌ لَكِ منْ صَلاتك في حُجْرَتك ، وَصَلاتُكَ في حُجْرَتك خَيْرٌ منْ صَلاتك في دَارك ، وَصَلاتُك في دَارك خَيْرٌ لَك منْ صَلاتك في مَسْجد قَوْمك ، وَصَلاتُك في مَسْجد قَوْمك خَيْرٌ لَك منْ صَلاتك في مَسْجدي.

قَالَ : فَأَمَرَتْ فَبُنيَ لَهَا مَسْجدٌ في أَقْصَى شَيْء منْ بَيْتهَا وَاظْلَمه ، فَكَانَتْ تُصَلِّي فيه حَتَّى لَقيَت اللّه عَزَّ وَجَلَّ.(٢).

وهذه التشريعات فيها استشراف للمستقبل فأنت ترى أن الصلاة خففت بعد أن كانت خمسين إلى خمس ففي حديث الإسراء الطويل عن أنس «....فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَىَّ مَا أَوْحَى فَفَرَضَ عَلَىَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فى كُلِّ يَوْم وَلَيْلَة فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتكَ قُلْتُ خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ ارْجعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطيقُونَ ذَلكَ فَإِنِّى قَدْ بَلَوْتُ بَنى إِسْرَائيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّى فَقُلْتُ يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتى. فَحَطَّ عَنِّى خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ حَطَّ عَنِّى خَمْسًا. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ

---

(١)) حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم - (٥٨ / ٥).

(٢)) أخرجه: أحمد في مسنده (٤٥ / ٣٧) ح(٢٧٠٩٠) ، وابن حبان كما في الإحسان في ذكر البيان بأن صلاة المرأة كلما كانت أستر كان أعظم لأجرها - (٥ / ٥٩٥) ح(٢٢١٧) ، وابن خزيمة ك الصلاة ب اختيار صلاة المرأة في حجرتها على صلاتها في دارها و صلاتها في مسجد قومها على صلاتها في مسجد النبي ﷺ **و إن كانت صلاة في مسجد النبي ﷺ تعدل ألف صلاة في غيرها من المساجد - (٣ / ٩٥) ح(١٦٨٩)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن سويد الأنصاري ووثقه ابن حبان.(مجمع الزوائد - (٢ / ١٥٤)، وقال الألباني: حسن لغيره صحيح الترغيب والترهيب - (١ / ٨٢).**

يُطِيقُونَ ذَلكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. - قَالَ - فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَات كُلَّ يَوْم وَلَيْلَة لكُلِّ صَلاَة عَشْرٌ فَذَلـكَ خَمْسُونَ صَلاَةً. وَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةَ فَلَمْ يَعْمَلْهَـا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَملَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً(١).

فنبي الله موسى طلب التخفيف لأنه يعلم أن أمة النبي ﷺ لن تطيق الصلاة إذا كانت خمسين، ومعرفته هذه جاءت من خلال تجربته مع بني إسرائيل.

ومن هنا يظهر واضحاً جلياً أن معرفة الماضي تساعد على إصلاح المستقبل بل كان يترك الفعل خوفاً على أمته التي قد لا تطيق.

فعَـنْ عَائشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُصَلِّي منَ اللَّيْل في حُجْرَته وَجدَارُ الْحُجْرَة قَصيرٌ فَرَأَى النَّاسُ شَخْصَ النَّبيِّ ﷺ فَقَامَ أُنَاسٌ يُصَلُّونَ بصَلاَته فَأَصْبَحُوا فَتَحَدَّثُوا بذَلـكَ فَقَامَ اللَّيْلَـةَ الثَّانيَةَ فَقَامَ مَعَهُ أُنَاسٌ يُصَلُّونَ بصَلاَته صَنَعُـوَا ذَلكَ لَيْلَتَيْن أَوْ ثَلاَثًا حَتَّـى إذَا كَانَ بَعْدَ ذَلكَ جَلَسَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَلَمْ يَخْرُجْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلكَ النَّاسُ فَقَالَ: إِنيِّ خَشيتُ أَنْ تُكْتَبَ عَلَيْكُمْ صَلاَةُ اللَّيْل(٢).

إن ظاهـر هـذا الحديث أنه ﷺ توقع ترتب افتراض الصـلاة بالليل جماعة على وجود المواظبة عليها ....

وقال ابن بطال: يحتمل أن يكون هذا القول صدر منه ﷺ لما كان قيام الليل فرضا عليه دون أمته فخشي أن خرج إليهم والتزموا معه قيام الليل أن يسوي الله بينه وبينهم في حكمه لأن الأصل في الشرع المساواة بين النبي ﷺ وبين أمته في العبادة.

قال: ويحتمل أن يكون خشي من مواظبتهم عليها أن يضعفوا عنها فيعصي من تركها بترك أتباعه ﷺ (٣).

---

(١)) جزء من حديث أخرجه: مسلم – ك الإيمان -باب الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ (٢ / ١٦) ح (٤٢٩) عن أنس.

(٢)) أخرجه البخاري- ك الآذان - ب إِذَا كَانَ بَيْنَ الْإِمَامِ وَبَيْنَ الْقَوْمِ حَائِطٌ أَوْ سُتْرَةٌ (١ / ١٤٦) ح(٧٢٩).

(٣)) فتح الباري - ابن حجر - (٣ / ١٣)، وانظر: شَرحَ صحيح البَخارىَ لابن بطال - (٢ / ٣٥٠).

فهذا التوقع فيه استشراف للمستقبل. ورغم خوفه عليهم من مشقة العمل أيضاً كان يخشي عليهم الاتكال.

عن أَنَس بْن مَالِك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ يَا مُعَاذُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا قَالَ مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا(١).

فهنا خشي على أمته في المستقبل من الاتكال على هذه الكلمة.

وكان حريصاً على أن يتعلم منه أصحابه كل شيء، من ذلك ما حدث أثناء حجة الوداع حينما شعر بدنو أجله .

عِن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرْمِى عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ يَقُولُ: « لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّى لاَ أَدْرِى لَعَلِّى لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِى هَذِهِ»(٢).

فقد علم عن طريق الوحي بدنو أجله فوضح لأمته الأحكام التي قد تخفى عليهم في المستقبل بل بعد وفاته.

المبحث الثاني: الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور العادات.

الفرق بين سنة العادة والعبادة أن ما سنهُ ﷺ ابتداءً ، ولم يكن هناك قرينةٍ تجعلنا نؤمن بأنها سنة عادة ، فهي سنة عبادة ، أما ما فعله عليه السلام انسجاماً منه مع العادات العربية ، فهذه عادة عربية لا بأس من فعلها ولا بأس من تركها ، وما فعله عليه السلام من عمل له علاقة بجبلته وبذوقه فهذه أيضاً ليس لها علاقة بالأمور التعبدية.

ونبينا ﷺ كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور المستقبلية كلها سواء عادة أم عبادة. فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا

---

(١)) سبق تخرجه ص ١٣. وهو حديث متفق عليه.

(٢)) أخرجه: مسلم – في ك الحج- ب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله ﷺ لتأخذوا مناسككم) (٢ / ٩٤٣)ح(١٢٩٧) ، وأبو داود ك الحج ب فى رَمْى الْجِمَار- (٢ / ١٤٦) ح(١٩٧٢)، والنسائي في ك الحج ب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم) (٥ / ٢٧٠) ح(٣٠٦٢).

الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ) (١). بل كان يترك الفعل خوفاً من عواقبه المستقبلية.

فعن جابر رضي الله عنه يَقُولُ غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا وَكَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ قَالَ مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فَقَالَ عُمَرُ أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْخَبِيثَ لِعَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ(٢).

وهذه سياسة عظيمة وحزم وافر لأن الناس يرون الظاهر والظاهر أن عبد الله بن أبي كان من المسلمين ومن أصحاب الرسول ﷺ فلو عوقب من يظن خلاف ما يظهر لم يعلم الناس ذلك الباطن فينفرون عمن يفعل هذا بأصحابه(٣).

ولك أن تتخيل أنه قتل هذا المنافق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر رغم علمه بنفاقه، لتحدث الكافرون في عصره عن قتله لأصحابه، ولأخذها المشككون اليوم ذريعة في التشكيك في الإسلام.

وقد يقوم أحد الحكام بقتل مخالفيه بحجة أنهم منافقون والنبي ﷺ قتل المنافقين

(١)) أخرجه البخاري في مواضع منها ، ك التهجد، ب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، (٥٦/٢) ح(١١٦٢).
(٢)) أخرجه: البخاري في مواضع منها ك المناقب ب مَا يُنْهَى مِنْ دَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ - (٤ / ١٨٣) ح(٣٥١٨)، ومسلم في ك البر والصلة والآداب ب نصر الأخ ظالما أو مظلوما) (٤ / ١٩٩٨) ح(٢٥٨٤).
(٣)) كشف المشكل من حديث الصحيحين (ص ٧٠١).

المبحث الثالث

الأحاديث التي تدل على استشراف المستقبل في أمور تحدث في أخبار الزمان.

مـا أطلـع عليه ﷺ من الغيوب وما سيكون في المستقبل: "والأحاديث في هذا الباب بحـر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمـره، وهي من جملة معجزاته المعلومة على القطع(١)، وقد جاءت أحاديث كثيرة تخبر عن أحداث تكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، لأنه ﷺ كان مستشرفا لمستقبل الدنيا من باب اطلاع الله له على الأمور الغيبية، وقد أخبر أصحابـه بما يكون إلى قيام الساعة. فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَـنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ﴾(٢).

ومـن استشرافـه للمستقبل أنه أخبر أن الشر يكثر بمرور الزمان قال ﷺ: (إنه مَا مِنْ يوم يجيء إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ) (٣).

وهذا واقع محسوس وهو أمر مشاهد ملموس.

وقـد جاءت أحاديث كثيرة تتحدث عن أحداث نهاية الدنيا وتتعلق بها بعض الأحكام الخاصـة. منها حديث النواس بـن سمعان رضي الله عنه عن الدجال قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّـالَ ذَاتَ غَـدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَلَمَّا

---

(١)) انظر: حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة - (١ / ٨٢)، والشفا (١/ ٤٧٠) وقد ذكر طرفا من هذه الأحاديث فمن أراد الاستزادة فليرجع إليه.

(٢)) أخرجـه: البخـاري في – ك القدر – ب (وكان أمر الله قدراً مقـدوراً) ٦/ ٢٤٣٥ ح(٦٢٣٠)، ومسلم في - ك الفتن – ب اخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة - ٤/ ٢٢١٧ ح (٢٨٩١) واللفظ لمسلم.

(٣) ( ) نص الحديث: عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِك فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الْحَجَّاجِ فَقَالَ: (مَا مِنْ عَامٍ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا) سَمِعْتُ هَذَا مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ، واللفظ للترمذي، أخرجه: البخاريّ في – ك الفتن - ب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه - ٦/ ٢٥٩١ برقم (٦٦٥٧)، والترمذي في – ك الفتن - ب ٣٥ - ما جاء فيي أشراط الساعة - ٤/ ٤٩٢ برقم (٢٢٠٦)، وقال: حسن صحيح، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/ ١٣٢ برقم (١٢٣٦٩)، وفي ٣/ ١٧٧ برقم (١٢٨٤٠)، وفي ٣/ ١٧٩ برقم (١٢٨٦١)، عن أنس.

رُحْنَا إِلَيْهِ ، عَرَفَ ذلكَ فينَا ، فَقالَ : ((مَا شَأْنُكُمْ ؟)) قُلْنَا : يا رَسُولَ اللهِ ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الغَدَاةَ ، فَخَفَّضْتَ فيه وَرَفَّعْتَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائفَة النَّخْل ، فقالَ : ((غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفَنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فيكُمْ ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ؛ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فيكُمْ ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِه ، واللهُ خَليفَتي عَلَى كُلِّ مُسْلِم . إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ ؛ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَميناً وَعَاثَ شِمالاً ، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا)) قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا لُبْثُهُ فِي الأَرْضِ ؟ قال : ((أَرْبَعُونَ يَوماً : يَوْمٌ كَسَنَة ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَة ، وَسَائِرُ أَيَّامِه كَأَيَّامِكُمْ)) قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، فَذلكَ اليَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ ؟ قَالَ : ((لاَ ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ)) .... الحديث)(١).

فهنا سأل الصحابة عن أعظم العبادات عن كيفية الصلاة فبين لهم كيفية الصلاة.

قال القاضي وغيره: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم شرعه لنا صاحب الشرع، قالوا: ولولا هذا الحديث ووكلنا إلى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام .

ومعنى أقدروا له قدره أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب وكذا العشاء والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب وهكذا حتى ينقضى ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة فى وقتها. وأما الثانى الذى كشهر. والثالث الذى كجمعة فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كاليوم الأول(٢).

وقد تحدث عن بيعة الخليفة المهدي في آخر الزمان فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ فَقَالَ

(١)) مسلم ك الفتن ب ذكر الدجال وصفة وما معه - (٤ / ٢٢٥٠) ح(٢٩٣٧).
(٢)) شرح النووي على مسلم ٦٦/١٨، و مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٥ / ٤٩٣).

فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ) (١).

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تحدثت عن الفتن التي تكون عند قيام الساعة، وهذا من أعلام النبوّة، حيث إن الرسول ﷺ أخبر عما يحصل في المستقبل، وقد حصل الكثير كما أخبر به ﷺ .. ولا شك أن هذه الأحاديث ينبغي أن يضعها المفتون في اعتبارهم حتى إذا جاء ذلك الزمان عرفوا الأحكام المتعلقة به.

(١) أخرجه ابن ماجة في ك الفتن - ب خروج المهدي - ١٣٦٧/٢ ح(٤٠٨٤)، وأحمد في مسنده ٢٧٧/٥ ح(٢٢٤٤١)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين – ك الفتن والملاحم - ٥١٠/٤ ح(٨٤٣٢)، وقال : صحيح على شرط الشيخين.
وقال البوصيري : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات رواه الحاكم في المستدرك من طريق الحسين بن حفص عن سفيان به، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده ولفظه إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي.[مصباح الزجاجة ٢٠٤/٤].

الخاتمة أسأل الله حسنها.

الحمـد لله رب العالمـين والعاقبة للمتقين وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد.

فـالله أعلـم بما هو الحق والصواب في كل سؤال وجـواب، فقد جمعت هذه المادة من كتب جليلة لأئمة من الأفاضل تغمدهم الله تعالى برحمته وأسكنهم فسيح جنته.

وقد ظهر من خلال البحث أن طريقة النبي ﷺ في الفتوى لم تكن لأجل زمانه هو وحـده ولا لتعليـم المسلمين المعاصرين له فحسب بل هـو تعليم للأمة في مختلف الأزمنة والأمكنة، وما أحرج الفقهاء الآن إلى معرفة هذا المنهج، والأخذ بمنهجه في الفتوى يكفل النجاح للمفتى ويسدد خطاه.

فينبغـي عليه أن يتعرف على طريقته ﷺ في الفتوى ، مع عدم إغفال فقه النوازل ، ومـا يفرضه ذلك من تدريب وإعداد من شأنـه أن يفتح أعيننا على أهمية الرجوع إلى الأصلين الشريفين.

كمـا أـن المستقبل الذي يخبر به المعصـوم ﷺ قد عرفه عن طريـق الوحي فهذا المستقبـل لا يحتمـل إلا الصواب، ويا ليت الجامعات والمراكـز العلمية تهتم باستشراف المستقبل في جميع التخصصات لا سيما الإسلامية.

وبعد فلا أدعي في عملي هذا الكمال كما لا أدعي أني جئت بما لم يأت به الأوائل بل أنا عالة على علمهم أغترف منه أهذب.

ولله در القائل :

يـا نـاظـراً فـيـمـا عـمـدتُ لِجـمـعِـهِ	عُـذراً فـإنَّ أخـا الفضـائـلِ يَعذرُ
عِـلـمـاً بـأنَّ المـرءَ لـو بَـلـغَ المـدى	في العُمرِ لاقى الموتَ وهو مُقصِّرُ
فـإذا ظـفـرتَ بِـزلـةٍ فـافـتَـح لـهـا	بـابَ الـتَّـجـاوُزِ فـالـتـجـاوزُ أجـدر
ومـنَ المحـالِ بـأن تَـرى أحـداً حَـوى	كُـنـهَ الـكـمـالِ وذا هـو المتـعـذِّرُ
غير الحبيب المصطفي الهادي الذي	يفنى الـزمـان وفضله لا يحصر

نسأل الله تعالى أن يثبتنا علي الإسلام ويختم لنا به ويعصمنا من الزلل وحسبنا الله ونعم الوكيل، والصلاة على محمد عليه السلام.

وأختمُ بما كان يختمُ به النبي ﷺ مجلس التحديث:

"اللَّهُـمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَـكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَـا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَـا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا"(١). وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أخرجـه: الترمـذي في ك الدعـوات – ب ٨٠ – ٥/٥٢٨ ح (٣٥٠٢)، عـن ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَلَّمَـا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ.... الحديث، قَالَ أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، والنَّسائي في السنن الكبرى – ك عمل اليوم والليلة– ب ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه لغطه - ٦/١٠٦ ح (١٠٢٣٤)، وفي عمل اليوم والليلة - ب ما يدعوا به الرجل لجلسائه - صـ٣٩٤ ح (٤٤٦)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين – ك الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر - ١/٧٠٩ ح (١٩٣٤)، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أهم المراجع

١. القرآن الكريم – جل من أنزله.

٢. أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب لمحمد محمود الصواف ط : دار الاعتصام القاهرة.

٣. الأدب المفرد – لأبي عبد الله البخارى – ط/ دار البشائر الإسلامية – بيروت – الثالثة – ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م- تحقيق/ محمد فؤادد عبد الباقي .

٤. الاستيعاب فى معرفة الأصحاب - لأبى عمر بن عبد البر - ط/ دار الجيل - بيروت- الأولى ١٤١٢هـ- تحقيق/ علي محمد البيجاوي.

٥. الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ط دار الجيل بيروت ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م .

٦. أهمية استشراف المستقبل وضوابطه دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية للدكتور محمد بشير.

٧. البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ط: دار الكتبي الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٨. تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض ، الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي - تحقيق مجموعة من المحققين - الناشر دار الهداية.

٩. تاريخ بغداد – للخطيب البغدادي – ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .

١٠. تاريخ مدينة دمشق – لابن عساكر ط/ دار الفكر – بيروت – ١٩٩٥ م – تحقيق / محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمري .

١١. التبصرة في أصول الفقه لأبي اسحاق الشيرازي ط: دار الفكر – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ المحقق: د. محمد حسن هيتو.

١٢. التحبير شرح التحرير في أصول الفقه لأبي الحسن المرداوي ط: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح.

١٣. تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذى للمباركفورى ط/دار الكتب العلمية بيروت .

١٤. التعريفات – لعلي بن محمد بن علي الجرجاني - ط/دار الكتاب العربي – بيروت – الأولى – ١٤٠٥هـ - تحقيق / إبراهيم الأبياري .

١٥. تقريب التهذيب – لأبي الفضل بن حجر العسقلاني – ط: دار الرشيد - سوريا - ١٤٠٦ – ١٩٨٦ - تحقيق محمد عوامة.

١٦. التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ط/ المدينة المنورة – ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م – تحقيق / السيد عبد الله هاشم اليماني المدني.

١٧. التلخيص في أصول الفقه لإمام الحرمين ط: دار البشائر الإسلامية – بيروت المحقق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري.

١٨. الثقات لابن حبان ط: دار الفكر - الأولى ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥ تحقيق : السيد شرف الدين أحمد

١٩. الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه وهو (صحيح البخاري) – للبخاري ط/ دار ابن كثير اليمامة بيروت الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م تحقيق / مصطفى ديب البغا .

٢٠. الجامع الصحيح، هو سنن الترمذي لأبى عيسى بن سورة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الكتب العربية. بيروت – لبنان.

٢١. حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة لمحمد بن خليفة بن علي التميمط: أضواء السلف، الرياض، السعودية الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٢٢. دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني ، تحقيق: د. محمّد رواس قلعة جي وعبد البرّ عباس، الطبعة (٢)، دار النفائس - بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٣. دلائـل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة – لأبى بكر البيهقى ط/ دار الكتب العلمية – بيروت .

٢٤. سلسلـة الأحاديث الصحيحة - للشيخ الألبـاني ط: منشورات المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٥. السنـة قبـل التدوين محمـد عجـاج الخطيب ط/ مكتبـة وهبة الأـولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

٢٦. سـنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بـن يزيد القزويني، حقق نصوصه محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

٢٧. سـنن أبـى داود – لأبـي داود بن الأشعـث – ط/ دار الفكـر – تحقيق / محمد محيى الدين عبدالحميد .

٢٨. سنن الدارمي – لأبي محمد الدارمي ط/ دار الكتاب العربي – بيروت – الأولى ١٤٠٧هـ - تحقيق / فواز أحمد زمرلى – وخالد السبع العلمي .

٢٩. السنن الكبرى – لأبي بكر البيهقي ط/ مكتبة دار الباز – مكة المكرمة – ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م – تحقيق / محمد عبد القادر عطا .

٣٠. السـنن الكبرى -للنسائي ط/دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – ١٤١١هـ - ١٩٩١م تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري ، وسيد كسروى حسن.

٣١. السـيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة وتحليل للدكتور مهدي رزق الله أحمد الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ط مركز الملك فيصل للبحوث الرياض.

٣٢. الشفـا بتعريـف حقوق المصطفـي – للقاضي عياضـ – ط / مكتبة الفارابي – إصدار / مؤسسة علوم القرآن – دار الفيحاء – حققه / نخبة من العلماء .

٣٣. صحيـح ابن خزيمـة – لمحمد بن إسحاق بن خزيمـة - ط/ المكتب الإسلامي – بيروت – ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م – تحقيق / د. محمد مصطفى الأعظمي .

٣٤. صحيح الترغيب والترهيب لمحمد ناصر الدين الألباني ط: مكتبة المعارف – الرياض- الطبعة : الخامسة.

٣٥. صحيح الجامع لمحمد ناصر الدين الألباني ط: المكتب الإسلامي.

٣٦. صحيح مسلم – لمسلم بن الحجاج– ط/ دار إحياء التراث بيروت – تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي .

٣٧. صور المستقبل العربي د/ إبراهيم سعد الدين، وآخرون، مركز دراسات الوحدة العربيَّة.

٣٨. العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى حققه وعلق عليه وخرج نصه : د أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض - جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية بدون ناشر الطبعة : الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٩. عمدة القاري شرح صحيح البخارى – لبدر الدين العينى – ط/دار إحياء التراث بيروت (د.ت).

٤٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ط دار المعرفة بيروت تحقيق / محب الدين الخطيب.

٤١. الفصول في الأصول (٢/ ١١٤) لأبي بكر الجصاص ط: وزارة الأوقاف الكويتية -الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٤٢. الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ط: دار ابن الجوزي – السعودية الطبعة: الثانية، ١٤٢١ه المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي.

٤٣. فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي ط/ المكتبة التجارية مصر الأولى – ١٣٥٦هـ .

٤٤. كشف المشكل من حديث الصحيحين لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، ط: دار النشر / دار الوطن - الرياض - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م تحقيق : علي حسين البواب.

٤٥. لسان العرب – لابن منظور –ط/ دار صادر – بيروت – الأولى .

٤٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي ط دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربى القاهرة بيروت ١٤٠٧ هـ

٤٧. مختار الصحاح - لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي - ط/ مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ – تحقيق/ محمود خاطر.

٤٨. المستدرك على معجم المؤلفين لرضا كحالة ط/مؤسسة الرسالة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٥

٤٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل – للإمام أحمد بن حنبل– ط/ مؤسسة قرطبة – مصر.

٥٠. مسند البزار- لأبي بكر البزار –ط/ مؤسسة علوم القرآن – بيروت – المدينة – الأولى – ١٤٠٩هـ - تحقيق / د/ محفوظ الرحمن زين الله .

٥١. مسند الطيالسي – لأبي داود الطيالسي –ط/ دار المعرفة – بيروت .

٥٢. مسند عبد بن حميد – لأبي محمد عبد بن حميد ط/ مكتبة السنة القاهرة الأولى – ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م تحقيق صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي .

٥٣. مصباح الزجاجة – للبوصيري – ط/ دار العربية – بيروت – الثانية – ١٤٠٣هـ - تحقيق / محمد المنتقى الكشناوى.

٥٤. معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله ط: دار الفكر – بيروت.

٥٥. المعجم الكبير – للطبراني – ط/ مكتبة العلوم والحكم – الموصل – الثانية – ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م – تحقيق/ حمدى بن عبد المجيد السلفي .

٥٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبى زكريا النووى ط دار إحياء التراث العربى - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ .

٥٧. النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ط المكتبة العلمية بيروت ١٣٩٩هـ - تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي .